الفصل الأول

أسباب الحديث عن التوحيد

موضوعي الأساسي الذي أنوي الكتابة عنه في هذه الرسالة، أو في هذا الكتاب الموجز، هو التوحيد، وفهمه برؤية تجديدية معاصرة.

وهنا يحق لسائل أن يسأل: هل هناك مبررات وجيهة ومقنعة للحديث عن التوحيد والدعوة إليه داخل المجتمعات الإسلامية، أو في رسالة موجهة للمسلمين الموحدين؟

بعض المهتمين بالفكر الإسلامي وتراث الفرق الإسلامية يردون على هذا السؤال بالنفي الواضح. عند هؤلاء أن التوحيد أساس الإيمان، وأساس العقيدة في الإسلام، أوضحه القرآن الكريم وأوضحه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعرفه المسلمون وتوارثوه جيلا من بعد جيل. لذلك لا مبرر لتكرار الحديث فيه.

سمعت هذا الرأي في مناقشات تلفزيونية أدرتها عن التوحيد والتجديد، ولمست عند أصحابه توجسا كبيرا وحقيقيا من إثارة موضوع

obeikandl.com

التوحيد. إنهم يرون فيه عنوانا لخطاب مدرسة من مدارس التفكير الإسلامي يتهمونها بالتعصب وضيق الأفق، وبما هو أكثر من ذلك.

وسمعت هذا الرأي من نشطاء في الحركات الإسلامية المعاصرة. هؤلاء أيضا يرون أن أمر التوحيد واضح وبيّن، وما تحتاجه المجتمعات الإسلامية المعاصرة هو الدفاع عن الأبعاد التشريعية والسياسية للإسلام من خلال العمل السياسي والإعلامي والاجتماعي.

كنت ممن يتبنى هذا الرأي الثاني لسنوات طويلة، وربما يجد القارئ فائدة من معرفة تفاصيل أخرى عن تجربتي الشخصية مع هذا الموضوع.

قصتي مع مصطفى العقاد

كنت تلميذا في السنة الخامسة من المرحلة الثانوية، في المعهد الثانوي المختلط بولاية سيدي بوزيد، وسط الجمهورية التونسية، في السنة الدراسية ١٩٧٨م – ١٩٧٩م. (يبدأ العام الدراسي في تونس في سبتمبر وينتهي في يونيو) ومثل أكثر زملائي آنذاك، لم أكن أصلي، ولم أكن مهتما بالشأن الديني عامة، ولم أكن على علاقة طيبة بالمتدينين من زملائي في الفصل، وقد كانوا قلة.

في نهاية ١٩٧٨م على الأرجح، أو بداية ١٩٧٩م، علمت من بعض الأصدقاء أن قصر البلدية في سيدي بوزيد بدأ بعرض الشريط السينمائي المشهور "الرسالة" للمخرج العالمي الراحل مصطفى العقاد يرحمه الله. كنت قرأت عن "الرسالة" في الصحف، وعرفت أنه عمل سينمائي ضخم ومثير، فرأيت أن من واجبي ألا أفوت الفرصة لمشاهدته مادام قد وصل إلينا في مدينتنا الصغيرة.

وبالفعل، شاهدت شريط "الرسالة" لأول مرة، فهزني من الأعماق. وعدت في اليوم الثاني لمشاهدته، فأسرتني فكرته وحبكته. وعند خروجي من قصر البلدية، اتخذت قرارا حاسما بأن أجعل من تعاليم "الرسالة" منهجا لحياتي. وبدأت أؤدي فريضة الصلاة في اليوم نفسه.

التقيت مصطفى العقاد بعد ذلك بنحو عشرين عاما تقريبا، في رحلة من رحلات الخطوط الجوية السعودية، متجهة من لندن إلى الرياض. كنت أجلس في مقعد من مقاعد الدرجة الأولى، بجوار الشباك. وإلى يساري جلس راكب آخر يكبرني سنا، أنيق ووسيم ورصين. كنت مدعوا للمهرجان الوطني للتراث والثقافة، الجنادرية، وبعد ساعة من إقلاع الطائرة، عرفت أن جاري في المقعد مدعو هو أيضا لذات المهرجان، وأنه ليس سوى مخرج الرسالة، مصطفى العقاد.

تستغرق الرحلة من لندن إلى الرياض حوالي خمس ساعات وثلاثين دقيقة، قضيت منها ساعتين على الأقل في حديث شائق لا يُمل مع بطل كبير من أبطال حياتي: مصطفى العقاد.

أذكر أنه قال لي مازحا، بعد أن قصصت عليه ما جرى لي منذ شاهدت شريط "الرسالة": لو كنت أعرف أن الشريط سيحدث هذا التأثير في حياتك ما أنجزته!! وبروح الجد قال لي مصطفى العقاد: إن الأفلام، والأعمال الثقافية الجادة عموما، هي مدافع العصر وأسلحته.

مع الاتجاه الإسلامي في تونس

أعود إلى سيدي بوزيد. بدأت أصلي، وقادتني الصلاة إلى المسجد، وفيه تعرفت على أصدقاء جدد، أكثرهم كانوا ينتمون لما كان يعرف في تونس بـ"الاتجاه الإسلامي"، وهو التيار الممثل لمدرسة الإخوان المسلمين في تونس. وبعد شهور قليلة، ومن دون تردد، أصبحت عضوا في "الاتجاه الإسلامي". واستمرت عضويتي إلى مايو ١٩٩٢م، عندما قدمت استقالة علنية من الحركة.

جمعت ثقافتي الإسلامية في أجواء الانتماء للاتجاه الإسلامي، وكانت مصادري الرئيسة هي كتب أشهر مفكري جماعة الإخوان المسلمين: حسن البنا وسيد قطب وفتحي يكن وسعيد حوا وزينب الغزالي يرحمهم الله، والدكتور يوسف القرضاوي، وغيرهم. عرفت من هذه المصادر أن الإسلام دين ودولة، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وأنه نظام سياسي واجتماعي وقانوني، وأن العمل لإقامة المجتمع المسلم، والدولة الإسلامية، واجب على كل مسلم.

دارت أكثر مساجلات الاتجاه الإسلامي في تلك الحقبة مع المنتمين للتيارات اليسارية والقومية بوجه خاص. كان النقاش يدور حول أدلة وجود الله تعالى، وعلى أن التدين ليس انحيازًا للفكر الرجعي، وأن الإسلام يدافع عن الفقراء والعدالة الاجتماعية.

كان التوحيد مهما عندي وعند أصدقائي وإخوتي، ولكن في السياق الذي أوضحته. أي التوحيد بمعنى الإيمان بالإسلام جملة وبأنه من عند الله عز وجل وأنه صالح لعصرنا وكل العصور. كنا نقرأ كتب الدكتور مصطفى محمود وما شابهها لنحفظ الأدلة على وجود الله ونستخدمها

في الرد على دعاة الإلحاد. وكنا نقرأ في كتب اليسار أيضا لنعرف نقاط الضعف فيها ونستطيع الرد على زملائنا المتحمسين للماركسية، الذين كانوا في غاية الإقتناع بأن الدين أفيون الشعوب.

ومع أن بعض المتخصصين صاغوا في بداية الثمانينيات وثيقة بعنوان "الرؤية الفكرية والمنهج الأصولي لحركة الاتجاه الإسلامي" بقصد الحوار حولها واعتمادها رسميا من طرف الحركة ككل، فإنها لم تنل حظا كبيرا من الاهتمام في صفوف الإسلاميين التونسيين.

عالم الصحافة، والصادق والترابي

تخرجت من الجامعة في سبتمبر ١٩٨٥م وحصلت على ما نسميه فيه تونس بشهادة الأستاذية في علوم اللغة العربية وآدابها، وهي درجة الباكالوريوس عند إخوتنا المشارقة.

قبل تخرجي بعامين بدأت رحلتي مع الصحافة. عملت أولا في صحيفة "الرأي" الأسبوعية المستقلة منذ صيف ١٩٨٣م. ثم انتقلت إلى مجلة "المغرب العربي" الأسبوعية المستقلة. ومنها انتقلت للعمل في أشهر صحيفة يومية، صحيفة "الصباح" اليومية، وكنت أحرر فيها صفحة الجامعة، مرتين كل أسبوع.

وبصفتي الصحفية زرت السودان عام ١٩٨٥م والتقيت عددًا من زعماء الانتفاضة التي أطاحت بالرئيس الراحل جعفر نميري يرحمه الله. وفي ١٩٨٦م عدت إلى السودان، وعملت في المركز الإسلامي الأفريقي في الخرطوم، محررا لمجلته الشهرية.

بقيت هناك عاما وبضعة أشهر حضرت فيها الانتخابات التي فاز بها حزب الأمة بزعامة السيد الصادق المهدي، وحضرت العام الأول من حكمه. في تلك الحقبة، تعرفت عن قرب إلى تجربة الحركة الإسلامية في السودان. كان زعيم الحركة، الدكتور حسن الترابي يتحدث عن التوحيد، بمعنى إقامة نظام سياسي واقتصادي واجتماعي يعود في كلياته وتفاصيله إلى الإسلام، أي بالمعنى الأقرب لفكرة الشمولية التي تبنتها حركة الإخوان المسلمين.

في لندن: الدراسة و"الشرق الأوسط"

في صيف ١٩٨٧م، حططت رحالي في العاصمة البريطانية لندن، والتحقت بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، لمواصلة دراساتي العليا لدرجتي الماجستير والدكتوراه، متخصصا في الدراسات الإسلامية المعاصرة، وقد حصلت على درجة الماجستير عام ١٩٩٠م، والدكتوراه عام ١٩٩٦م.

بعد أقل من عام واحد من وصولي إلى لندن، في ربيع ١٩٨٨، التحقت بجريدة "الشرق الأوسط"، مشرفا على صفحتها اليومية الدين والتراث. كانت "الشرق الأوسط" في تلك الأيام أهم منبر إعلامي عربي جامع، توازي في تأثيرها ما حققته الفضائيات الرئيسة المشهورة في نهاية التسعينيات من القرن الماضي.

أعطاني رئيس التحرير، الإعلامي السعودي المعروف عثمان العمير، حرية مطلقة تقريبا في الإشراف على الصفحة. فطبعتها بالروح التي نشأت عليها في صفوف الحركة الإسلامية التونسية

والمدرسة الإخوانية وفي أجواء حلقات النقاش في الجامعة التونسية. فتحت ملفات كثيرة للحوار، واستكتبت الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- والدكتور يوسف القرضاوي، وكتابا آخرين مشهورين. كما نشرت في صفحة الدين لكتاب محسوبين على المدرسة العلمانية، ضمن مناظرات عن الإسلام وتحديات العصر.

وقد واجهت مشكلة دينية سياسية فرضتها الحرب العراقية الإيرانية التي كانت تشارف على نهايتها عامي ١٩٨٨م و١٩٩٩م. أدت الحرب إلى نشوء حرب من الفتاوى والمؤتمرات بين أنصار العراق وأنصار إيران. وكانت "الشرق الأوسط" في الصف المؤيد للعراق، ومن هذا المنطلق كانت تصلني مقالات كثيرة تنتقد إيران كدولة شيعية، وتنتقد الشيعة بوجه عام.

ميول مع إيران

غير أنني بذلت جهودا كبيرة من أجل تحرير الصفحة الدينية من الدخول في هذه المعركة، ومنعت نشر أكثر هذه المقالات والفتاوى المعادية للشيعة فيها. ومن أهم أسباب هذا الموقف أن ميول الإسلاميين التونسيين خاصة، وأكثر الإسلاميين العرب خارج منطقة الخليج، كانت أقرب إلى إيران، وكانت متعاطفة مع ثورتها الإسلامية، مبغضة لفكر البعث وسياساته.

وقفت بقوة وحماس إذن ضد الإساءة لإيران والشيعة في صفحة "الدين والتراث"، وكانت حجتي أمام رئيس التحرير أنه يجب ألا نسمح للسياسة بتوظيف الدين لتفريق المسلمين، وأن من الأفضل أن

نبقي الرابطة الدينية بين السنة والشيعة قائمة وقوية لنداوي بها آثار الحرب العراقية الإيرانية عندما تتوقف.

أما موضوع التوحيد فلا أذكر أنني طرحته كموضوع للنقاش والاجتهاد والتجديد طيلة الفترة التي حررت فيها صفحة "الدين والتراث" في جريدة الشرق الأوسط، وهي مرحلة بدأت في ١٩٨٨م، وانتهت باستقالتي عام ١٩٩١م لخلافات مع بعض مسؤولي التحرير الذين التحقوا بالصحيفة.

انتقلت من جريدة "الشرق الأوسط" إلى مجلة "العالم" التي كانت تصدر أسبوعيا من لندن، ويرأس تحريرها الكاتب والإعلامي البحريني الدكتور سعيد الشهابي، وتوليت الإشراف فيها على قسمها الإسلامي، الذي يتكون من عدة صفحات.

عملت في مجلة "العالم" سنتين. ولم تكن عندي أي موانع من العمل في مؤسسة إعلامية محسوبة على إيران، علما بأن المجلة كانت ذات أفق إسلامي واسع وغير معنية بالخلافات المذهبية. وقد سبق أن أشرت إلى أنني كنت أشعر، مثل جيل واسع من الإسلاميين في تونس والمغرب العربي بوجه خاص، بالتعاطف مع إيران وشعارات ثورتها الإسلامية، وأرى ضرورة العمل لتعزيز التقارب والتضامن بينها وبين العالم العربي.

الاستقالة من حركة النهضة

في مايو ١٩٩٢م ، أي في أثناء مدة عملي في مجلة "العالم"، قررت الاستقالة من حركة النهضة، وهو الاسم الجديد الذي اتخذته

حركة الاتجاه الإسلامي في تونس منذ ١٩٨٨م. استقلت بسبب خلافات سياسية وشخصية نشأت بيني وبين عدد من قيادات الحركة في المدة من ١٩٩٠م إلى ١٩٩٢م، ووصلت بعد كثير من التفكير والتردد، إلى أن الأفضل لي أن أترك الحركة وأعمل لديني ووطني وأمتي كاتبًا وإعلاميًا مستقلاً، بدل أن أقضي الوقت في مناكفات وخصام مع إخوتي في الحركة التي انتميت إليها لأكثر من عقد من الزمان.

وقد راجعت تجربتي الشخصية في الحركة الإسلامية التونسية خلال السنوات اللاحقة لتقديم استقالتي، وبدا لي أن العمل الحزبي تحت الراية الإسلامية في مجتمع مسلم قد يجلب من الأضرار للإسلام والمجتمع أكثر مما يجلب من المكاسب. كما أن نهج الصدام والمغالبة مع السلطة باسم الشعارات الإسلامية، غالبا ما ينتهي بإلحاق الضرر بتلك الشعارات، وهذه فكرة مال إليها كثير من علماء الإسلام في العصور السابقة عند تعاطيهم مع تحديات مماثلة في شأن الحكم والسياسة.

لكن هذه المراجعات لم تتطرق لموضوع التوحيد وأهميته في أولويات العمل للإسلام والدعوة إليه. لم أشعر بأي داع للتفكير في هذا الأمر، ولم أصادف من أو ما يدعوني لطرحه ضمن ما يمكن مراجعته.

المستقلة.. والحوار الصريح

في يناير ١٩٩٣م نشرت العدد الأول من جريدتي العربية الدولية، جريدة "المستقلة". بدأت الصحيفة شهرية في المرحلة الأولى، ثم انتظمت في الصدور أسبوعيا قبل نهاية عامها الأول. أصبحت المسؤول عن سياسة التحرير لجريدة أسبوعية وصل عدد ما تطبعه في بعض

الأوقات ما يقارب أربعين ألف نسخة. وتشرفت باستكتاب نخبة من الكتاب والإعلاميين العرب المرموقين. وأقول أيضا بصراحة شديدة: إنه خلال عقد كامل صدرت فيه الصحيفة، لم يجل بخاطري أن أطرح موضوع التوحيد للنقاش والاجتهاد والتجديد.

خلال هذه المراحل من حياتي، في المعهد الثانوي بسيدي بوزيد، وفي الجامعة التونسية، وأثناء دراساتي العليا في جامعة لندن، وطيلة مدة إشرافي على تحرير الصفحة الدينية في "الشرق الأوسط"، وخلال رئاستي لتحرير جريدة "المستقلة"، كنت دائما -ومازلت- متحمسا للإسلام، مؤمنا أنه منهاج السعادة لكل الناس في الدنيا والآخرة، وأسأل الله أن يحييني على هذه القناعة إلى أن ألقاه سبحانه وتعالى. غير أنني لم أكن أرى ضرورة للحديث عن التوحيد من أجل بيان عظمة الإسلام وأهميته.

لماذا أكتب هذه الرسالة إذن عن التوحيد والتجديد؟

في ١٩٩٦م حصلت على رخصة لإطلاق قناة "المستقلة" الفضائية في لندن. بدأ البث التجريبي في ١٩٩٩م، وتمكنا من بث أول برنامج مباشر من مقر القناة في العاصمة البريطانية يوم ١ مايو ١٩٩١م.

في نوفمبر من العام ٢٠٠٢ميلادية، حل شهر رمضان المبارك للعام ١٤٢٣هـ. وفيه طرحت تراث الفرق الإسلامية للنقاش والتقويم في برنامج "الحوار الصريح بعد التراويح"، الذي أصبح البرنامج الرئيس لقناة المستقلة في كل مرة يحل فيها شهر رمضان المعظم.

"الحوار الصريح بعد التراويح" برنامج حواري يومي يبث بعد

الفراغ من التراويح في المسجد الحرام، مدته في العادة ساعة وخمس وأربعون دقيقة، وفي بعض الأحيان دامت بعض الحلقات لنحو خمس ساعات. وعلى مدى السنوات الماضية، ناقش البرنامج موضوعات كثيرة في تراث الفرق الإسلامية بجرأة وصراحة لم يسبق إليهما. ويقول عدد من المهتمين بالإعلام الفضائي العربي إنه أصبح واحدا من أشهر البرامج الحوارية في ميدانه، ميدان الحوار في تراث الفرق الإسلامية.

لم يكن البرنامج عملا موجها ضد أي جهة، أو لحساب أي جهة. كان وما يزال مبادرة إعلامية لتشجيع روح النقد والاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي. وعندما خصصته لنقد تراث الفرق الإسلامية في ٢٠٠٢، لم أكن محيطا بكل أبعاد المسائل الخلافية في تراث الفرق، وإن كان لدي انطباع أولي عام بأن رموز المدرسة السلفية يميلون للتشدد والتنطع، ويضعون عوائق غير مبررة أمام التقارب الإسلامي المنشود بين السنة والشيعة.

كانت علاقتي بالعلماء والباحثين الشيعة المشاركين في البرنامج طيبة وصريحة وخالية من العقد. وربما أدى هذا ببعض الناس في الأعوام الأولى للبرنامج لاتهامي بمحاباة الشيعة وأحيانا بالتشيع. أما العلماء والباحثون السنة فقد كانت علاقتي بهم عادية ومهنية صرفة. كان أكثرهم من المنتسبين للمدرسة السلفية، لأن علماء هذه المدرسة لهم دراية أكبر وأعمق بالمسائل الخلافية مع الفقهاء الشيعة.

بنيت حساباتي على أساس أن التقارب الحقيقي الذي يبقى ويكون له أثر في مستقبل الفكر الإسلامي هو ذاك الذي يكون ثمرة حوار

حقيقي وصريح بين المختلفين في الرأي. أما إذا كررت تجارب الكثير من الجهات الإسلامية في إدارة ندوات للمجاملات والعلاقات العامة فلن نصل إلى شيء مهم ومعتبر. لذلك حاولت أن أوفر للحوار الصريح أعلى سقف ممكن من الحرية والصراحة والجرأة، ولضيوفه الوقت الكافي لعرض أفكارهم وأدلتهم والرد على دعاوى مخالفيهم.

في أجواء هذا البرنامج، بدأت أدرك تدريجيا أهمية التفكير في موضوع التوحيد، كشرط من شروط فهم التراث الضخم من السجال العقدي والفقهي بين الفرق الإسلامية. وأدركت أيضا أنني كنت غافلا عن هذا الأمر وعن أهميته. أقول "تدريجيا" ويجب وضع أكثر من سطر تحتها. فقد استغرق الأمر بعض الوقت، علما بأن مسيرة "الحوار الصريح" تطورت منذ أن بدأ تقويم تراث الفرق الإسلامية عام ٢٠٠٢، إذ أنني كنت أتعلم وأستفيد من كل جولة أقدمها من جولات البرنامج، وهي جولات بثتها قناة المستقلة في شهر رمضان من كل عام، وفي غير شهر رمضان عدة مرات خلال الأعوام الماضية.

وفي أجواء هذا البرنامج تعرفت على العديد من الأصدقاء الجدد، ممن لديهم اهتمام خاص بموضوعات النقاش في برنامجي. كثير من هؤلاء كتاب وأساتذة جامعيون تسامرت معهم، ودخلت في سجالات طويلة معهم حول الموضوعات التي يناقشها البرنامج، واستفدت من تعليقاتهم وملاحظاتهم وأفكارهم.

صديقي الذي يدندن حول فكرة واحدة

وتعرفت أيضا إلى صديق له باع كبير في السياسة والعمل العام،

وابن عائلة كبيرة مرموقة في العالم العربي. التقيت هذا الصديق في موسم حج عام ١٤٢٣ هجرية، ٢٠٠٢ ميلادية، بعد شهرين أو ثلاثة من بث الجولة الأولى من جولات تقويم تراث الفرق الإسلامية في برنامج "الحوار الصريح بعد التراويح". حضرت احتفالا رسميا أقامه الملك فهد بن عبد العزيز -يرحمه الله- لعدد من رؤساء الدول ورؤساء وفود الحجيج وكبار الشخصيات المشاركة في موسم الحج لذلك العام. بعد أن تحدث وزير الحج السعودي وعدد من الضيوف الآخرين، قام الجميع لتناول طعام العشاء على مائدة الملك.

في تلك اللحظة، تقدم نحوي أحد الذين كانوا جالسين قرب الملك، وصافحني بمودة.

أنت محمد الهاشمي؟ سألني، فقلت: نعم. وحضرتك؟

قدم لي نفسه، فعرفت قدره ومكانته، وعرفت منه أيضا أنه من المهتمين بسجالات برنامج "الحوار الصريح بعد التراويح". تناولنا طعام العشاء معا، على مائدة الملك فهد -يرحمه الله-، ثم تشرفت بزيارة هذا الرجل الكريم في منزله في مكة بعد أيام التشريق. كانت تلك هي زيارتي الأولى لبيته. ثم زرته بعد ذلك مرات عديدة.

سألني صاحبي في أول زيارة لي إليه: ألا توافق أن من أخطر الأمور على المؤمن أن يقع في الكبائر؟ قلت: بلى. قال: فإن الله تعالى يغفر كل الذنوب، إلا ذنبا واحدا، هو الشرك به سبحانه وتعالى. وقرأ قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾. (النساء: ٤٨)

ثم أضاف صاحبي: ما دام ربنا عز وجل هو من أوضح أن الشرك

هو الذنب الوحيد الذي لا يغفر، أليس من واجب كل مسلم أن ينتبه إليه، ويحتاط من الوقوع فيه؟

حول هذه الفكرة دندن صاحبي في أول لقاء لي معه، وفي كل لقاء آخر جمعني به تقريبا طيلة السنوات الماضية.

وعندما يتطوع الرجل بنصيحة، فإنها تأتي على صلة بالفكرة الكبرى المؤثرة عليه. لطالما قال لي: اجعل عملك كله لله عز وجل. وظف ما أوتيت من إمكانيات للتعريف بالإسلام الصحيح. ولطالما قال لي أيضا: احفظ الله يحفظك، وانصره ينصرك، ويسخّر مِن خلقه من ينصرك.

بعد اللقاء الأول، قلت لنفسي: هذا الرجل سياسي وليس فقيها. سياسي متأثر بالبيئة السلفية، لذلك سأسمع منه على وجه المجاملة، وأمضي في طريقي. واتخذت الموقف نفسه في اللقاء الثاني والثالث والرابع والخامس. لكن صاحبي كان يكرر ذات الأفكار والنصائح في كل مرة تتاح لي فرصة اللقاء به، وبسبب إلحاحه وتكراره، أجبرني أن أتأمل في طرحه وأدلته.

كانت السياسة عندي هي العنوان الأكبر في النظر إلى الإسلام وفهمه ورصد أثره في التاريخ وفي عصرنا. تلك نتيجة طبيعية لما تعلمته في مدرسة الإخوان المسلمين. شمولية الإسلام كانت تقودني وتقود أكثر الإسلاميين المعاصرين للحديث عن السياسة والصراع في دائرتها، مع أن الإخوان يتحدثون أيضا عن تربية الفرد المسلم، فالأسرة المسلمة، فالمجتمع المسلم. المنهج كان يقودنا بوعي أو بغير وعي لإعطاء الأولوية

للسياسة والحكم والصراعات الفكرية والاجتماعية والسياسية المرتبطة بهما. والواقع يدل على ذلك أيضا. فمعارك الإخوان الكبرى تدور رحاها في الانتخابات البرلمانية هنا وهناك، وفي أروقة النقابات المهنية والجمعيات العامة المؤثرة.

لكن، هل وجّه الإسلام وبيّن بالأدلة الواضحة أن السياسة وإقامة الحكم الإسلامي هي الأولوية الكبرى للدين والمتدينين؟

صاحبي الذي يعمل بالسياسة، ولا يدعي أنه عالم متبحر في الفقه، يقول لي: لا. الأولوية هي أن تعبد الله لا تشرك به شيئا. أن تبتعد عما يمكن أن يفسد التوحيد ويضعك في دائرة الشبهة، شبهة الشرك. هذا هو الأمر الأعظم، وكل أمر آخر يأتي بعده في الأهمية.

كما ترون. وجدت نفسي أمام مسألة جديرة بأن يبحث المرء فيها بحرص واجتهاد، ليعلم أي الطرحين، أو النهجين، أقرب للحق والصواب.

وفي غمار هذا البحث وهذا الاجتهاد اكتشفت أهمية أمر التوحيد، كما سأبين بالتفصيل في الفصول اللاحقة.